

المذهب المالكي بين الوسطية والاعتدال الناصرى نموذجاً

للأستاذ الزبير دحان

واعظ وخطيب

لا يخلو عصر من العصور من رجالات أولي بقية ينهون عن الفساد، ينشرون العلم النافع وسط العباد، والعمل الصالح في البلاد، ويصححون للناس الفهوم الخاطئة، ويحذرونهم الانحرافات المهلكة، وهم العدول الذين ورد فيهم حديث "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"¹.

وترمي هذه الورقة إلى عرض صورة لنموذج من رجالات الإصلاح الذين بصموا وقعهم بصمات مجددة، وأبانوا عن عبقریات متعددة، وخلفوا في ضمير الأمة آثاراً خالدة.

والشخصية التي تدور حولها هذه الورقة هي شخصية مؤرخ المغرب في عصره، الشيخ العلامة أحمد بن خالد الناصري، نتعرف على مثال تظهر فيه وسطيته في حين يغلب في المسألة إما إفراط وإما تفريط.

الناصرى بطاقة تعريف

هو أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد - المدعو حمادا - بن محمد

1 - رواه البيهقي (209/10).

الكبير، بن أحمد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير، ابن الشيخ محمد الشهير بابن ناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بالمغرب².

ومعلوم أن ابن ناصر³ مؤسس الزاوية ينتهي نسبه إلى جعفر بن أبي طالب، كما بينه الناصري في كتاب طلعة المشتري، ومن ثم فهو جعفري زينبي، جده جعفر بن أبي طالب، الذي تزوج السيدة زينب شقيقة السبطين الحسن والحسين ابني السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ.

ولد الناصري في منتصف القرن الثالث عشر، سنة 1250هـ، في مدينة سلا، على عهد السلطان المولى عبد الرحمن، وكانت وفاته نهاية العقد الأول من القرن الرابع عشر سنة 1315هـ أي على عهد السلطان عبد العزيز بن الحسن الأول، الذي تمت له البيعة بعد وفاة المولى الحسن سنة 1311هـ، وهذا السلطان -المولى الحسن- هو الذي كان الناصري من مقربيه، وفي عهده تقلب في وظائف مخزنية مختلفة، ودرس في مراكز علمية شتى، في مراكش، وسلا، وفاس.

نشأ الناصري في كنف أسرته بمدينة سلا، وتلقى العلم على يد ثلة من الشيوخ المبرزين في عصره، في مختلف الفنون، إلى أن اشتد عوده، وسطع نجمه، وصار إماما مبرزا في عصره.

وهكذا على امتداد نحو ستة عقود ظلت حياة الناصري سلسلة من الإنجازات العلمية التي يندر أن تكتحل العيون بقراءة مثلها، طبع منها كتب منها الاستقصا الذي أرخ فيه لبلاد المغرب منذ البعثة وحتى عهد الحسن الأول،

2 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (9/1)، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري. وإتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (1 م 336)، تأليف عبد السلام بن عبد القادر بن سودة. تحقيق وتنسيق محمد حجي. ط. دار الغرب. الطبعة الأولى: 1417هـ - 1997م. ومنها: تخليد المآثر وتقييد المفآخر بترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن ناصر، لتلميذه الشيخ محمد بن علي الدكالي لسلاوي.

3 - ترجمته موسعة في طلعة المشتري في النسب الجعفري (ص: 119-149). لأحمد بن خالد لناصر. ط. المؤسسة الناصرية للثقافة.

أي نحو أربعة عشر قرنا من التاريخ، وبقي أكثر تراث الناصري حبيس الخزانات، لا سيما الخزانة الصبّحية بمدينة سلا.

لقد اتسمت شخصية الناصري بميزات قلما اكتملت لأحد في عصره، واجتمعت فيه ملامح غالبا ما تكون متضادة عند غيره، فكان رجل الدين الموسوعي والمتفتح على العالم الخارجي، ولم يكن متقوقعا منزويا مصرا على كل قديم جامد، ولا متخوفا من كل جديد وافد.

ولكن صفة من الصفات البارزة في شخصية الناصري هي موسوعيته العلمية، وشموليته الثقافية، مما أهله ليكون مشاركا مشاركة بارزة في عدد من الفنون. فلئن عرف بصاحب الاستقصا ليكون في طليعة المؤرخين مع ما يتطلبه التأريخ من اطلاع واسع على الأخبار، ومكنة على التمييز بين الصافي والكدر، وما يتبع ذلك من تحليل يغوص فيما وراء الخبر، فهو أيضا ذو ذوق شعري وأدبي بديع، ولغوي من المستوى الرفيع، وله شروح لعدة قصائد شعرية، وتعليق على ديوان المتنبي، وناهيك بمن يهجم على شعر أحد فرسان هذا الفن، إلى غير ذلك من الجوانب العلمية المتعددة.

ومع تنوع ملامح الشخصية الغنية، فإننا نود الوقوف عند جانبين من جوانب الشخصية الناصرية، هما جانب السلفية والتصوف، وهذان الجانبان غالبا ما يعتبران متضادان عند الناس، لكن بوسطيته ألف الناصري بينهما، ونجح في صهرهما أيما نجاح، حتى إنه إذا وصف بالسلفي صدقت عليه الصفة، وإذا قيل صوفي صحت في حقه التسمية.

الناصرى الصوفى السلفى

صوفية الناصري

أما تصوف الناصري فما أحسب أحدا يشك فيه، فهو سليل الزاوية

الناصرية المشهورة المؤسسة بدرعة، التي تشرب منها مواد هذا العلم، وقواعده وأصوله، ورضع آدابه وفنونه من أسرته، فضلا عن أن التصوف كان سائدا في عصره، وله زوايا عدة تروجه وتدعو له، والزاوية الناصرية إحدى تلك الزوايا، ولكنها كانت من أكثر الزوايا بعدا على الابتداع، وطريقتها من أحرص الطرق على الاتباع، هذا هو أصل التربية فيها، ولا يعكر عليها ما كدر هذا التوجه كما نبه عليه بعض مشايخ الزاوية.

وصرح الناصري في أكثر من مناسبة بانتسابه لأهل التصوف، وحبه لهم، وثنائه على أئمتهم، ولا يعكر عليه ما سيأتي من نقد لاذع للصوفية؛ لأنه ينتقد المنحرفين منهم لا المستقيمين، فهؤلاء يحبهم ويجلهم، بل قال بكل تواضع في شأنهم: "معاذ الله أن يكون كلامنا مع هؤلاء، وأي شيء نحن حتى نتكلم معهم، رزقنا الله محبتهم وتعظيمهم، وحشرنا في زمرتهم آمين. وإنما كلامنا مع القاصرين والمخلطين أمثالنا"⁴.

وأما "هذه الطائفة؛ أعني الصوفية المتمسكين بالكتاب والسنة، الجارين على سنن السلف الصالح - رضي الله عنهم -"⁵ فهؤلاء يثني عليهم، ويبجلهم ويحفل بأقوالهم، في الوقت الذي نجد بعض المنتسبين إلى السلفية، والمحسوبين منها يفرطون في ذم التصوف مطلقا، ولا يقبلون منه رسما ولا جسما.

سلفية الناصري

أصل السلفية لغة كلمة سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفًا، ومعناها مضى وانقضى. ومن ذلك قوله تعالى: **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّبِعُوا يُفْقَرْ لَهُمْ مَا قَدْ مَلَفَ**

4 - تعظيم المنة بنصرة السنة (ق 1/ 135).

5 - تعظيم المنة (ق 129 / ب).

6 - (الأنفال/ 38).

وَلَيْنَ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ⁶ أي يغفر لهم ما تقدم ومضى.
ومنه يقال سَلَفُ الرجل أي آبؤه المتقدمون ولهذا سمي الصدر الأول من
التابعين السلف الصالح، والجمع أسلاف⁷.

وأما اصطلاحاً فالمراد بالسلفية أتباع السلف الصالح، ابتداء من الصحابة،
ثم الذين بعدهم من القرون الفاضلة الذين قال فيهم النبي ﷺ قال "خير الناس
قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم
يمينه ويمينه شهادته قال إبراهيم وكانوا يضرِبوننا على الشهادة والعهد"⁸.

فكل من اتبع منهج أصحاب القرون الفاضلة فهو سلفي.

ولهذا المعنى اقترنت السلفية بمعاني ممدوحة على امتداد التاريخ الإسلامي،
ولم يرد الطعن في أحد بوصفه السلفي، أو نسبته للسلفية، بل ظل المصطلح
مقروناً بالتعديل. وأصبحت نسبة عمل ما إلى السلف الصالح دليل صوابه.

وإذا عرف هذا المعنى فلن يجد المرء كبير عناء، ليقف على سلفية الناصري، لا
اعتماداً على الذين ترجموه فاتفقوا على نعتة بالسلفي، بل بصريح عباراته وواضح
منهاجه كما سيأتي، إلا أن العجيب أن سلفيته لم تخرج من القرويين وهو ما جعل
بعض الباحثين في الدعوة السلفية بعدما مثل للسلفية التي انطلقت من القرويين،
يجعل من الناصري مثالا للسلفية التي خرجت من خارج القرويين⁹، وهو أمر
عجيب، والأعجب منه أن تخرج سلفية الناصري من زاوية صوفية.

وسلفية الناصري لا تظهر فقط من خلال الذين ترجموه، وهو في حد ذاته
له اعتباره، بل إن جل أو كل كتب الناصري تشهد أنه سلفي المنهج والعقيدة.

7 - لسان العرب، ومختار الصحاح؛ مادة: سلف.

8 - صحيح : رواه البخاري (2458)، ومسلم (4601)، من حديث عبد الله بن مسعود.

9 - مقال "السلفية خارج القرويين" (ص: 103) لمحمد الفلاح العلوي؛ مجلة أمل للتاريخ والثقافة
والمجتمع؛ عدد تحت عنوان: جامع القرويين والفكر السلفي 1873-1914.

سلفي المنهج باعتماده الكتاب والسنة مقرونا بمراعاة أقوال السلف الصالح، لأن الكتاب والسنة ادعت اتباعهما معظم الطوائف، إلا أن الذي يفضح الاتباع أو يشهد له، المنهج الاستدلالي الذي يسلكه المدعي. فكما قيل :

والدعاوى ما لم تقيموا عليها ... بينات أبنائها أدعياء

وشهادات الناصري لصواب مذهب السلف عقيدة ومنهاجا أكثر من أن تتسع لها هذه الورقة، بل يعتز بأن المغاربة كانوا في صدر الإسلام "على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم وهو المذهب الحق إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية"¹⁰، وما فتئ الناصري في كل مناسبة ينافح عن هذا المذهب الحق ويدعو إليه.

وبالمقابل نرى الناصري ينتقد كل انحراف عن منهج السلف، حتى لو صدر من أقرب الناس إليه، ومن هذا الباب يأتي موقفه من موضوع التصوف الذي يعتبر كما تقدم أحد أبنائه، ومن تلاميذ مدرسته.

نقد الناصري للتصوف

مما يجب التنبيه عليه أن الناصري حين صوب نقده نحو التصوف، فهو يعني التصوف الذي ازور عن الجادة، وانحرف عن الصراط المستقيم، الذي سلكت عليه طائفة المتصوفة، حيث إنه "اختلف بهذه الطائفة الطاهرة غيرها، وكثر المتزبي بزيمهم، والمدعي لطريقتهم بغير حق ولا حقيقة، فاختلف المرعى بالهمل، وعظم الخطر والزلل.

لا نسب إليومرولا خلة اتسع الخرق على الراقع¹¹
وعندما اختلف الحابل، واتسع الخرق على الراقع، صوب الناصري نقده

10 - الاستقصا (129/1).

11 - تعظيم المنة (ق 129 / ب).

لفضح الدخلاء، لا سيما أن اللبس في شأن هذه الطائفة لم يقف عند العوام، بل كما قال "التبس الأمر في هذه النسبة الشريفة على من يعد نفسه من العلماء، فضلا عن العامة والجهلاء"¹²، فوضع الناصري الميزان الذي سلكه سلف الأمة، كما سلكه أكابر المتصوفة، لفتش كل ولي، أو فضح كل دعي، وهو عرض أعمال كل مدع على الكتاب والسنة، دون التفات إلى ما سوى ذلك، أو اغترار بما وراء ذلك، فلو سار فوق الماء، أو طار في الهواء، لم يعدل حتى يأتي بشاهدي عدل على عمله من الكتاب والسنة، لأنك - كما قال ابن تيمية رحمه الله - "تجد كثيرا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أو يمشي على الماء أحيانا أو يملأ إبريقا من الهواء أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو يختفي أحيانا عن أعين الناس أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضى حاجته أو يخبر الناس بما سرق لهم أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك"¹³. من الأمور التي لم يغتر بمثلها الناصري وقرر القاعدة التي سار عليها السلف، هو التمسك بالكتاب والسنة، فمن "تمسك بهما اعتقدناه ومن نبذهما نبذناه"¹⁴.

وعلى هذا النهج سار الناصري في نقده العام، ونقد التصوف على وجه الخصوص، فلا يؤيد قولاً من الأقوال إلا إذا كان مدعوماً بدليله من السنة والقرآن، كما لا ينقض كلاماً إلا لمخالفته للأدلة المبنية على الكتاب والسنة. وبما أن المقام لا يتسع للوقوف على جميع انتقادات الناصري للتصوف، سوف يقتصر هذا العرض على محور يكون دالاً على غيره، أو بمثابة العنوان لما سواه.

12 - تعظيم المنة.

13 - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: 62).

14 - تعظيم المنة.

ملاحظات الناصري على شيخ التصوف

يعتبر الشيخ لدى كثير من المتصوفة ركيزة من ركائز السير، حتى قال قائلهم، "من لا شيخ له فشيخه الشيطان"، وتحت هذا العنوان الكبير تضخمت مكانة الشيخ المربي حتى اعتبروا أن "الله يغضب لغضب الشيخ"، وأن على المريد أن "يجلس أمام شيخه كجلوس العبد أمام سيده"، و"يعمل ما أمره وإن كان ظاهره مخالفا لظاهر النقل" "ولا يتزوج زوجته من بعده"¹⁵، إلى غير ذلك من الآداب التي على المريد أن يسلكها مما فيه غلو ظاهر، وتعسف قاهر، وكل هذا اعتمادا على قصة موسى مع الخضر عليهما السلام التي سلم فيها الرسول الكريم للمربي العليم !

ولهذا وقف الناصري في كتاب تعظيم المنة ناقدا أمام سلطة الشيخ المضخمة، وعقد فصلا خصصه لبيان الخلل التنظيري في مسألة الشيخ، وبيان الخلل التطبيقي، يحمل بإحدى يده الأدلة المحكمة من الكتاب والسنة، وبالأخرى أقوال أهل التصوف المعبرين، وأئمتهم الأقدمين. ودارت محاور نقده لمسألة الشيخ حول المسائل التالية : هل الشيخ ضرورة من ضرورات التربية؟ وعلى القول بالإيجاب ما هي مواصفات الشيخ المربي؟ وأخيرا ما هو واقع الشيخ في عصر الناصري ؟

لا جرم أن مسألة الشيخ مسألة جوهرية في عملية التربية، وقلما ينجح المرء بعيدا عن الشيخ في هذا المجال، وهذه مسألة لا يجادل فيها، والناصري أيضا يقرر هذا المعنى ويرى أن الشيخ "على الجملة أمر لازم لا يسع أحدا إنكاره"¹⁶، ولكنه يميز هنا بين نوعين من الشيوخ؛ شيخ التربية، وشيخ التعليم.

15 - تنظر هذه النقول في كتاب المختار من تعظيم المنة والمعار (ص: 155- 156)، لإسماعيل الخطيب. وهو نقلها من كتاب: "تحفة أهل الفتوحات والأذواق".

16 - تعظيم المنة.

وبينما انصرف كثير من متصوفة الأزمنة المتأخرة إلى التركيز على شيخ التربية، وضخموا سلطته على النحو الذي تقشعر له الجلود، ونسوا وأهملوا مسألة التعليم الذي لا يتصور تربية بدونه، صحح الناصري هذه المغالطة موضحة ضرورة شيخ التعليم دون شيخ التربية، وذلك من ناحيتين :

أولاً: أن الشيخ التربية ليس ضرورة من ضرورات السلوك؛ إذ لا دليل عليه من الكتاب ولا السنة، ولا اتفاق علماء الأمة، وأما ما يروجه بعض المشايخ من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، التي يتعلق بها أصحاب فرضية شيخ التربية فعلق الناصري بأن قول موسى للخضر «هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا»¹⁷ فهي دليل لشيخ التعليم لا لشيخ التربية"، فلا متمسك في هذا، لأن أهمية شيخ التعليم لا خلاف فيها، وعليها سار السلف. وأما شيخ التربية بالمعنى الذي يروجه بعض مشايخ التصوف فلا دليل عليه، بل نقل الناصري محتجا لنفيه بخلو مصنفات الأقدمين من أئمة التصوف ممن صنفوا في طريق السلوك منه، والذي يظهر "من كتب كثير من مصنفيهم كالخارث بن أسد المحاسبي، والشيخ أبي طالب المكي، وغيرهما من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها وسوابقها ولواحقها"، وحيث لم تعرج تلك المصنفات التي رسمت طريق القوم ومنهاجهم بخطوطه الكبرى، وتفصيله الصغرى، على شيخ التربية، وإنما ذكرت شيخ التعليم، تبين كما قرر الناصري "أن شيخ التربية لم يكن في عصر السلف الصالح، ولا عند الصوفية الأقدمين، وإنما أحدثه المتأخرون منهم"، وعليه فالزعم أن من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه دعوى عارية، وشبهة واهية. بل - كما في تعظيم المنة - من كان وافر العقل منقاد النفس فإن "وفور عقله وانقياد نفسه

يغنيانه عنه فيستقيم له من العلم بما يلقيه إليه الشيخ شيخ التعليم أو يأخذه من الكتب ما لا يستقيم لغيره وهو واصل بإذن الله ولا يخاف عليه ضرر"، من شيطان أو غيره كما زعموا.

وأما الشيخ الذي هو حتم ولازم فهو شيخ التعليم، الذي يبصر السالكين بأحكام ربهم، ويرجعون إليه في أمور دينهم، وهذا الذي تشهد له الشواهد الكثيرة من الكتاب والسنة؛ مصداقا لقوله تعالى : **فَأَمَّا لَوْلَى أَهْلِ الذِّكْرِ لَئِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** 18.

وليس معنى هذا أن الناصري يمنع شيخ التربية البتة، ولكنه يمنع كونه ضرورة من ضرورات السلوك، ولا شيء يوجب من أدلة الكتاب والسنة، وأنزله الناصري قريبا من منزلة الرخصة إذ "يحتاج إليه منهم من فيه بلاده ذهن واستعصاء نفس وأما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه وتقيده به من باب الأولى". وعلى هذا يكون شيخ التربية في حق هؤلاء القاصرين ضرورة واستثناء؛ لأنهم "بمنزلة من به علل مزمنة من المرض فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة"، وأما الصحيح المعافى، والذكي الأريب، فلا يحتاج أصلا إلى طبيب.

ثانيا : بعدما خلص الناصري إلى أن شيخ التربية إنما هو رخصة لبعض الناس، لا ضرورة لكل السالكين كما ادعاه بعضهم، انتقل إلى التنبيه على المكانة التي يجب أن يكون عليها شيخ التربية، محذرا تضخيم الصوفية لحجمه، وتوسيع سلطته وسطوته، حيث غالوا في صلاحياته، وبالغوا في صفاته حتى بلغت حدا تأباه الشريعة ولذلك قال منبها "إياك أن تغتر بقول من قال سلم للرجال في كل حال فإنه بمقتضى ظاهره وعمومه مخالف للشريعة ومناف لمقتضى التكليف

ومناقض لقوله تعالى : **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** ¹⁹ وموجب لهدم قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عين الإباحة وبهذا ونحوه يلبس المتزندق على ضعفاء العقول من المسلمين فيظنونهم حجة ويسكتون على الأمور العظام التي لا يحل السكوت عليها بحال وإنما الحجة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس وما ألحق بها من الأدلة الشرعية المنصوص عليها في أصول الفقه واعلم أن الواجب المتعين في الشرع أن من أبدي صريح المخالفة وهو حاضر العقل ثابت الذهن وجب الاحتساب عليه والضرب على يديه كائنا من كان ! .

كما لم ير الناصري متمسكا للعهد الذي يأخذه الشيخ من المريد بقول الخضر : **فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ²⁰ ، لأنه علاوة على كون علم الخضر إلهي **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ، يقينا ، وكون موسى أعلمه الله تعالى بعلم الخضر يقينا ، فهو "ليس من قبيل العهد الذي يأخذه شيوخ التربية على المريدين كما هو واضح إذ ليس فيه سلب الإرادة والإلقاء باليد بحيث يتصرف الخضر في موسى كيف شاء ! ²¹ .

وبعدما حرر الناصري مسألة الشيخ تحريرا مؤصلا مبنيا على الكتاب والسنة ، ومؤيدا بأقوال العلماء عامة ، وعلماء التصوف خاصة ، نبه أيضا على أن لشيخ التربية شروطا مقرررة ، وأوصافا محررة ، يندر وجودها ، بل قرر الناصري أن "شيخ التربية في هذه الأزمنة متعذر وجوده ؛ أعز من الكبريت الأحمر ²² " ، ومن ثم انتقل لفضح أحوال كثير من شيوخ التصوف في الأزمنة المتأخرة الذين ليس لهم من المشيخة سوى الاسم ، ولا يعرفون من التسليك سوى الرسم !

19 - (القيامة/ 36) .

20 - (الكهف/ 66) .

21 - تعظيم المنة .

22 - تعظيم المنة .

